

ما زال الحديث في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾¹ في جملة من الروايات يذكر موانع الحكمة، والشرائط الموجبة للحكمة، من أهم موانع الحكمة: التكبر، والسبب في ذلك ينبغي أن يكون واضحاً؛ باعتبار أن التكبر والغرور مضافاً إلى كونه في حد ذاته يعتبر ذنباً، بل ومن الكبائر، والذنوب بشكل عام تمنع عن الفيوضات الربانية والألطف الإلهية، والحكمة من الفيوضات الربانية، مضافاً إلى هذا الشيء العام، فإن التكبر والغرور في حد ذاتهما يكون من موانع المعرفة، من موانع الفهم، فإن الإنسان المتكبر والمغرور لا يرى الغير، ولا يرى قيمة للآخرين، ومن لا يرى قيمة للآخرين لا يتعلم منهم، ولا يسأل؛ لأنه يتنافى مع كبريائه وغروره، ولا يستفيد من تجارب الآخرين، وكل من العلم والفهم والسؤال والتجربة دخیل في تحصيل ملكة الحكمة، لذا في الكافي عن مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَنَانَ رَفَعَهُ قَالَ: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ع يَا مَعْشَرَ الْخَوَارِجِينَ لِي إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ أَقْضُوها لِي قَالُوا قُضِيَتْ حَاجَتُكَ يَا رُوحَ اللَّهِ فَقَامَ فَغَسَلَ أَقْدَامَهُمْ فَقَالُوا كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا يَا رُوحَ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالَمُ إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لَكَيْمًا تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضَعِي لَكُمْ ثُمَّ قَالَ عِيسَى ع بِالتَّوَاضَعِ تَعْمُرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكْبَرِ وَكَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ² فالتكبر على طرق نقيض من الحكمة.

ومن مستدعيات الحكمة طاعة الله ومعرفة الإمام في الكافي عن عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى عَنْ يُونُسَ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ الْحَرِّ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا فَقَالَ طَاعَةُ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ الْإِمَامِ³ بل الحكمة هي طاعة الله ومعرفة الإمام،

¹ لقمان 12

² الكافي (ط - الإسلامية)، ج 1، ص: 37

³ الكافي (ط - الإسلامية)، ج 1، ص: 185

لما ذكرناه من أن الحكمة ليست هي معرفة المصطلحات، قد تكون لمعرفة المصطلحات دخالة، لكن ليس هي الحكمة، الحكمة هي الإصابة في الأمور، هي وضع الأمور في نصابها الصحيح، وهذا لا يكون إلا بطاعة الله سبحانه وتعالى وبمعرفة الإنسان لإمام زمانه.

أيضاً في بعض الروايات يذكر أن الصمت له مدخل في الحكمة، وإذا أردنا أن ندخل في باب الصمت يطول الحديث، لكن بشكل مختصر، الصمت بما هو صمت بمقتضى الجمع بين الأخبار ليس هو المطلوب، الصمت الذي يكون لأجل التفكير ولأجل التدبر هو المطلوب، هذا خلاصة الجمع بين النصوص الواردة في الصمت، فلذا ورد في الكافي عن مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عِيسَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي نَصْرٍ قَالَ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا عَنْ عَلَامَاتِ الْفَقْهِ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ وَالصَّمْتُ إِنَّ الصَّمْتَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْحِكْمَةِ إِنَّ الصَّمْتَ يَكْسِبُ الْمَحَبَّةَ إِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ⁴.

ومن موجبات الحكمة، وهذا الشرط الأخير الذي نذكره، هو الزهد في الدنيا، في الكافي عن مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عِيسَى عَنْ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ الْهَيْثَمِ بْنِ وَاقِدٍ الْحَرِيرِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَثْبَتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَبَصَرَهُ عَيُوبَ الدُّنْيَا دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ⁵. لأن الزهد في الدنيا لا ينشأ إلا عن معرفة، عن معرفة بحقيقة الدنيا، عن معرفة بخالق الدنيا، عن معرفة بأن هذه الدنيا لا قيمة لها، فحينئذ يكون من وصل إلى هذه المعرفة بصيراً بمغريات هذه الدنيا، متدبراً فيها، وهذه هي الحكمة. هذا ما يرتبط بالحكمة.

الوقفه الخامسة: في الآية الثانية عشر في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ هنا -في هذه الوقفة الخامسة- يقع الحديث عن أمور:

الأمر الأول: في سبب الالتفات في هذه الآية، صدر الآية ﴿وَلَقَدْ﴾ يعني نحن المتكلم، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ حق الكلام أن يقول أن اشكر لنا، فقال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فهذا التفات من التكلم إلى الغيبة، فلا بد أن نعرف الوجه في ذلك، لماذا هذا الالتفات؟

⁴ الكافي (ط - الإسلامية)، ج2، ص: 113

⁵ الكافي (ط - الإسلامية)، ج2، ص: 128

أما التكلم فلقد جاء على أصله؛ لأن الباري سبحانه وتعالى يخبر نبيه بما فعل مع لقمان، فحق الكلام أن يكون بلسان التكلم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ﴾ فهذا على أصله، لو مشى على هذا المنوال، وقال أن اشكر لنا، لفات على المخاطب الالتفات الواضح إلى سبب الشكر؛ لأن ضمير (نا) (ونحن) ليس فيه ما يتضمن علة الشكر، بخلاف اسم الجلالة، بخلاف لفظ الجلالة ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ بما يتضمن لفظ الجلالة من صفات الجمال والجلال، فالشكر حق له لما يتضمن من صفة الخالقية والمنعمية والحكمة والعلم والحياة والقدرة والرازقية وما شابه ذلك، فإذا كان كأنه يريد أن يبين في هذه الكلمة المختصرة سبب الشكر، وهذا كان يفوت لو قال أن اشكر لنا، وإن كان الضمير يرجع إلى المتكلم، والمتكلم هو الله، لكن هذا لا يصرح فيه في العبارة، يحتاج إلى انتقالات ذهنية كثيرة، بخلاف ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فهذا هو سبب الالتفات بحسب الظاهر في هذه الآية المباركة.

الأمر الثاني: في موقعة كلمة "أَنْ" ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن هذه ما هي؟ أن يوجد فيها نظريتان:

النظرية الأولى: أن تكون ﴿أَنْ﴾ بمعنى أي التفسيرية، وآتينَا لقمان الحكمة أي اشكر. لكن الذين اختاروا هذه النظرية اختلفوا إلى فرقتين، فرقة التزموا بلزوم تقدير فعل في الجملة؛ ليكون المعنى وآتينَا لقمان الحكمة وقلنا اشكر لله، فقدروا فعل، وطائفة أخرى على رأسهم العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه قال نلتزم بأن ﴿أَنْ﴾ تفسيرية، لكن لا نحتاج إلى تقدير فعل، بل يكون الشكر مباشرة تفسيراً.

النظرية الثانية: أن ﴿أَنْ﴾ في موضع نصبه، والفعل الذي بعدها يعني ﴿أَنْ﴾ هذه مصدرية، وأن المصدرية تحتاج إلى صلة، والفعل الذي بعدها يكون داخلاً في صلتها، على حد ما ذكره سيبويه في قولهم كتبت إليه أن قم، أي: كتبت إليه القيام. لكن هذه النظرية الثانية بعيدة عن معنى الآية الشريفة، ولذا قل من اختار هذه النظرية.

الصحيح هو ما اختاره العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه، ولكي يتضح المطلوب لا بد من معرفة حقيقة الشكر، ما هو الشكر؟ هناك أقوال متعددة لبيان حقيقة الشكر عند المفسرين، عند العرفاء وعند المتصوف، كتبوا في ذلك الكثير، فعن بعضهم: أن حقيقة الشكر هي معرفة المنعم، الشكر الحقيقي هي أن تعرف المنعم، وأن لا تعرف لنفسك في النعمة حظاً، هذا البعض يرى أن هذه هي حقيقة الشكر

على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾⁶ وفي بعض الأخبار: قَالَ مُوسَى عِ الْهِي كَيْفَ اسْتَطَاعَ آدَمُ أَنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ مَا أُجْرِيَتْ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَتِكَ خَلَقْتَهُ بِيَدِكَ وَ أَسْجَدْتَ لَهُ مَلَائِكَتَكَ وَ أَسْكَنْتَهُ جَنَّاتِكَ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنَّ آدَمَ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَنِّي فَذَلِكَ شُكْرُهُ⁷.

البعض ذهب إلى أن حقيقة الشكر هي استعمال النعمة في طاعة الله سبحانه وتعالى، البعض الآخر ذهب إلى أن حقيقة الشكر عبارة عن إظهار النعمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾⁸ على كل أقوال متعددة في هذا المجال.

لكن لابد أن نتعرف على حقيقة الشكر من خلال القرآن الكريم، القرآن يبين لنا أن النعم التي تعطى للإنسان على نوعين:

النوع الأول: النعم الذاتية، وهي النعم التي توجد مع الإنسان، من سمع وبصر وعقل وجسم، هذه نسميها نعم ذاتية، أي: توجد مع الإنسان.

النوع الثاني: النعم العرضية، وهي النعم تعرض عليه بعد تـكونه في هذه الدنيا، فنسميها نعم عرضية من غنى وجاه وعلم ومقام وما شابه ذلك من الأمور التي تعرض عليه في هذه الدنيا بعد وجوده.

هذه من جهة من جهة أخرى يقول الباري تبارك وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾⁹ فهذا يدل على أنه ليس كل عابد أو كل عبد يكون شاكراً، بل الشاكر هم القلة، في نفس الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يطلب من آل داوود أن يكونوا من الشاكرين فيقول: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾¹⁰ إذا ضمنا الفصلين من الآية إلى بعضهما البعض نعرف:

أولاً: أن حقيقة الشكر ليست هي بمجرد التلفظ باللسان، وإلا كان الكثير من عباد الله سبحانه وتعالى من الشاكرين لا القليل.

⁶ النحل 53

⁷ جامع الأخبار (للشعيري)، ص: 127

⁸ الضحى 11

⁹ سبأ 13

¹⁰ سبأ 13

ثانياً: أن الفصل الواردة في حق آل داوود لم يقل قولوا آل داوود شكراً، بل قال: اعملوا. النبي سليمان السلام بلحاظ هذه الآية قال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾¹¹ يعني قدرني أن أكون شاكراً، لو كانت القضية مجرد لفظ كان مباشرة يقول: ربي أنا أشكرك، عندما نتأمل هذه الآيات نجد أن الشكر الحقيقي هو تفعيل هذه النعم، لكن في طاعة الله.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾¹² هذه النعم الذاتية. مواطن الشكر الأولي هو النعم الذاتية، وكذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾¹³ الذي يفعل هذه الأدوات على أكمل وجه هو الذي يكون شاكراً، لكن القليل من الناس من يفعل هذه الأدوات ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ فالشكر يكون بالعمل، بتفعيل الطاقة، بتفعيل ما حولنا إليه الباري سبحانه وتعالى لا بمجرد أن نقول: الشكر لله، بناء على ذلك ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مقتضى الحكمة التي ذكرنا في الجلسة الماضية انها ترجع إلى مقام العمل أكثر منها إلى مقام العلم بالاصطلاحات، ترجع إلى مقام العمل، فالحكمة المفسرة بالشكر هو تفعيل الطاقة، تفعيل القدرة، الله سبحانه وتعالى خلق لنا أفئدة أي عقولاً لا بد أن نستعمل هذه العقول في خير البلاد والعباد، خلق لنا سمعاً وبصراً فلا بد أن نفعل هذه النعمة في خدمة العباد والبلاد إطاعة لله سبحانه وتعالى، حينئذ من الشاكرين، وإلا كان سليمان عليه السلام يستطيع أن يقول الشكر لله، بل طلب من الله أن يقدره على أن يشكر ما أنعم به عليه وعلى آل داوود، وقد قالت الآية لآل داوود ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

وكذلك بالنسبة للنعم الطارئة على الإنسان يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾¹⁴ التمكين في الأرض من النعم العارضة وليست من النعم الذاتية ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾¹⁵ الشكر اللساني يجري على لسان كثيرين، في بعض الدول معروف عندهم أنه هذا الشعب بخصوصه يكون السارق يسرق ويقول الحمد لله، الشكر

11 النمل 19

12 النحل 78

13 المؤمنون 78

14 الأعراف 10

15 الأعراف 10

الله، يعني يذكر الله، هذا لوحده لا يكفي، الشكر الحقيقي إذن أن نفعل ما أنعم الله به علينا في هذه الدنيا سواء كان من النعم الذاتية أم من النعم الطارئة علينا في هذه الدنيا، ويؤيد ذلك ما ورد في بعض الروايات، أن لكل نعمة شكر خاص لها، فلو أن الله سبحانه وتعالى رزقك وسيلة نقلية، من شكر هذه النعمة أن تقل بها الإخوان، هذا نوع من الشكر، وهذا تفعيل لما أنعم الله به عليك، إذا رزقك الله سبحانه وتعالى داراً، هذه نعمة من النعم الطارئة على الإنسان في هذه الحياة، شكر هذه النعمة يكون باستضافة الإخوان، باستضافة المؤمنين، باستضافة الفقراء، رزقك الله سبحانه وتعالى مصنعة من شكر الله لهذه النعمة أن توظف المؤمنين، المحتاجين، الذين لهم خبرة وما شابه ذلك؛ لترفع البطالة من المجتمع الإسلامي، ومن نعم الله سبحانه وتعالى علينا نحن كطلاب علوم دينية العلم، وشكر نعمة العلم هي إنفاقه، العلم يزكو على الإنفاق، فالشكر الحقيقي هو تفعيل هذه النعم التي رزقنا الله سبحانه وتعالى إياها، نسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون من الشاكرين.